



بقلم: مالك المتريكي*

إن الأمال التي انعقدت عند نشر مطبوعتنا الأولى على الثورة في نابولي وبيمونت قد خابت نهائيا كما أن الصعوبة التي لقيها الأهالي في إنهاء المعارك قد أتاحت لمن يناهضون حقوق الشعوب فرصة للاستهزاء. ولم يكن أحد ليفترض أن القوات الشعبية في نابولي وبيمونت قادرة حتى لو اتحدت على مواجهة جيوش النمسا لا سيما بعد أن أتاه الممدد المتوقع من الجيوش الروسية (..) وإنما كانت آمال المتعاطفين مع توك شعب نابولي إلى الحرية ممن لا يجيزون لأمانهم أن تؤثر في استنتاجاتهم أو تسبق تفكيرهم مستمدة من حسن ملاءمة طبيعة البلاد للحرب الدفاعية (..) لكن مع التسليم بأنه لم يبق الآن الكثير مما يرجى من إيطاليا في مجال تقدم قضية التحرر فإن المشواهد قد تكاثرت على أن الشعوب لم تعد تقبل أن تحكم على أساس المبادئ المساندة في الدول الاستبدادية منذ قديم العصور.

المطبوعة التي ذكرت في بداية الفقرة السابقة هي تلك التي نشرت في مدينة ماننستر في أبريل 1821 لإعلام الجمهور بقرب صدور جريدة جديدة باسم ماننستر غارديان. أما الفقرة ذاتها فهي مقتبسة من العدد الأول الذي صدر يوم 5 مايو 1821. ولقد كان من عجيب الموافقات حقا أن يتزامن مولد الغارديان ذلك اليوم مع موت نابليون! لكن لم يكن أحد في أوروبا آنذاك ليعلم بموته لأن وصول الأخبار من البقاع القصية كان يستغرق أسابيع بل أشهر. لهذا لم يتسن للغارديان إعلان النبأ إلا يوم 7 يوليو 1821 فكتبت: وصل الأربعاء القبطان كروكات من الفوج العشرين إلى مقر إمارة البحرية ببرقية تعلن هذا النبأ الهام. وإليكم التفاصيل: من جزيرة سانت هيلانة 7 مايو.

قضى بونايرت نحيه يوم 5 مايو في السادسة مساء بعد مرض استحكمت ستة أسابيع (..) وفي لحظاته الأخيرة تجلى طبعه من طباعه الفارقة وهو شغفه الجارف بالحكم حتى الموت. إذ لما شعر بدنو الأجل طلب أن يلبس زي الجنرال مع الحذاء العسكري وأن يمدد على السرير المنقأ الذي اعتاد النوم فيه زمن كان ينعم بالصحة. وقيل إنه توفي في هذا الزي (..) ورغم أن المرجح أن بونايرت عانى شديد الألم فإن نهايته كانت يسيرة هادئة إلى حد أن لم تسمع منه شهقة أو زفرة ولم يبدر منه ما ينبئ من حوله بأن قد حضرته الوفاة. وعند إبحار المهيرون البارجة التي نقلت الضباط والأبناء من سانت هيلانة إلى بريطانيا كان موعد الجنازة لمّا يحدد بعد. لكن من المقرر أن تكون جنازة رسمية بالمراسم العسكرية التي تليق بمقامه.

ما سبق عينتان كافيتان للتدليل على أن أخبار القرنين الماضيين لا تقل جدة وطزاجة عن أخبار اليوم وأن أحداثا مثل احتلال الجزائر عام 1830 أو ثورات ربيع الشعوب الأوروبية عام 1848 أو حرب القرم عام 1853 أو انتصار بروسيا على فرنسا عام 1871 وغير ذلك من وقائع التاريخ الحديث لا تزال معاصرة لنا يمكن أن نقرأها في برقيات عاجلة وتقارير إخبارية ومراسلات ميدانية كأنها حدثت للتو. أي أن التاريخ الحديث (بخلاف التاريخ الموسيط والمقديم) إنما هو تاريخ مزامن لنا يساكننا بل يلامسنا ويلابسنا. تاريخ طري يانع يستمد طزاجته من ديمومة النسخ المحيي: نسغ الصحافة غاذيا كيان الجريدة. الجريدة الأصيلة عندما تكون مرصدا ومنبرا مؤسسة ومدرسة أي شبابا فكريا دائما لا تزال منه عاديات الزمان.

إن من عجائب عصرنا أن من الجرائد (مثل التايمز والتلغراف ونيويورك تايمز الخ) ما هو أقدم عمرا وأعرق تاريخا بل وأوضح شخصية من كثير من الدول والكيانات السياسية.

ولهذا حق لجريدة الغارديان التي صارت تعرف بهذا الاسم اختصارا منذ انتقالها من مانشستر إلى لندن عام 1959 أن تحتفل هذا العام بالذكرى المئوية الثانية لمولدها لبااعتبارها إحدى أعرق الجرائد في العالم فحسب بل وباعتبارها اليوم أيضا إحدى أنجح المؤسسات الصحافية في الجمع بين الاستقلالية الاقتصادية والانتشار الجماهيري.

ومن أطرف الأدلة على عراقة الغارديان أن أشهر صورة لأشهر رئيس تحرير في تاريخها تشارلز برستويتش سكوت (صاحب القولة الشهيرة: التعليق حر لكن الوقائع مقدسة) إنما التقطت بمناسبة مائوية الجريدة. وقد كان ذلك عام 1921! أي عام مولد جمهورية إيرلندا الحديثة. أما الأطرف على الإطلاق في رأيي فهو وفاء (أو ولاء) آل برايت الذين بقوا مواظبين على قراءة الغارديان منذ 1821 حتى اليوم أبا عن جد على مدى سبعة أجيال! كان الجد الأعلى ليبراليا من مانشستر ولهذا تماهى نضال العائلة مع نضال الجريدة في القضايا المصرية: حق الاقتراع للرجال وإلغاء الرق (في القرن 19) وحق الاقتراع للنساء ومناهضة الإمبريالية في القرن 20.

أما معنا نحن العرب فقد كان للغارديان قصة أخرى تستحق أن تروى.